الحلقة الثالثة

الباب الأول

المتـــرددون الأوائـــل بين بغـــداد وباريس

تأليف: ستيفاني مسينيه
كلود أنجلي

ترجمة : سلام العبودي

هذا الكتاب إبان حرب الخليج ، غالباً ما كان الحديث يدور حول (لوبي موال للعراق). فهل شبكة كهذه موجودة حقاً في فرنسا؟ ما هي إذن بنيتها؟ وهل استطاعت ، عبر ما يقرب من عشرين عاماً ، أن تتحرك على رجال دولة وزراء وعسكريين ، وأن تقنعهم بانتهاج سياسة مؤيدة لصدام حسين؟ وأخيراً ، ما هو تأثيرها الحقيقي؟ يحاول هذا الكتاب الرد على تلك التساؤلات ، عبر وصف لدور قام به رجال غير معروفين بشكل جيد ، عملوا بنشاط في الكواليس ، خلال الفترة الطويلة من عمر الصداقة الفرنسية - العراقية ؛ وكذلك ، عبر سرد تفصيلي لكيفية اتخاذ القرار من جانب أعلى مستوى ، لتزويد صدام حسين بتكنولوجيا نووية وأسلحة متطورة جداً ، وبدعم عسكري ودبلوماسي خاصة في منظمة الأمم المتحدة ، إضافة إلى تسهيلات مالية.

وتشمل مادة هذا الكتاب كل رموز تشكيلة الطيف السياسي الفرنسي في الفترة من زمن بومبيدو إلى زمن ميتران ، مروراً بجيسكار ، شيراك ، بار ، موروا ، شيسون وشوفنمان.

الفصل الثالث
صدام حسين في باريس

انطلقت العلاقات الفرنسية - العراقية مع زيارة صدام حسين إلى باريس على وجه التحديد. في البدء باسم المصالح المتقاربة، وبشكل خاص في المجال النفطي؛ ولكن أيضاً، بفضل إرادة سياسية أكيدة.

من الجانب العراقي، هذه الإرادة قديمة. ففي الرابع عشر من تموز ١٩٥٨، أطيح بالملكية، التي ساندها البريطانيون، على أنغام النشيد الوطني الفرنسي La Marseillaise ولحن الكارمانيول Carmagnol. وفي الحال، سعى القادة الجدد، عبر جهود سرية، من أجل أن تعترف بهم فرنسا. لكن ديغول تردد طويلاً، الأمر الذي ولد مرارة شديدة لدى العراقيين. ولهذا، لم تبدأ العلاقات الدبلوماسية مع بغداد إلا في ٢٩ كانون الثاني ١٩٦٣، بعد عدة أشهر من استقلال الجزائر.

بعد ذلك بأربع سنوات، أثار موقف الجنرال ديغول، أثناء الحرب الإسرائيلية - العربية في حزيران ١٩٦٧، تياراً من التعاطف نتيجة لشجب فرنسا بدء الحرب من قبل إسرائيل؛ وكذلك، لفرض فرنسا حضراً على بيع الأسلحة. وقد نظرت بغداد لهذا الموقف على أنه تغيير عميق في موقف فرنسا تجاه الدول العربية. وهو ما هنأ العراقيون أنفسهم عليه.

وفي بغداد، أصبح ديغول بطلاً؛ ونسيت حرب الجزائر، كي لا يحتفظ إلا بصورة ديغول المقاوم في لندن. وصفقوا لقراره بالانسحاب من حلف شمال الأطلسي وانتقاداته للسياسة الأمريكية.

يقول سفير سابق في العراق: (منذ ذلك التاريخ، اعتبر العراقيون أن فرنسا قد أصبحت نقطة توازن بين موسكو وواشنطن).

❖ ❖ ❖

السياسيون الذين يجب إقناعهم

كان قرار جورج بومبيدو استقبال صدام حسين النتيجة الأولى لجهود بعض الفرنسيين الذين كانوا يريدون، منذ سنوات، أن يشاطرهم المسؤولون السياسيون شغفهم بالعراق، والذين كان على رأسهم رجال النفط ممن أبدوا أسفهم (لأن المواقف المتخذة في باريس كانت غير بعيدة النظر)، على حد تعبير أحدهم.

في عام ١٩٥٢، مولت الشركة الفرنسية للنفط إنشاء مركز التوثيق والتأليف الذي نشر، عام ١٩٥٦، مجلة (الشرق). وبالاتفاق مع إدارة الشركة، خطط جان روندو، الذي تم إنشاء المركز بمبادرة منه، لأن يجعل المركز (مكتب دراسات ودعاية، دوره الرئيسي تخليص الدول والحكومات من التردد الذي يشل عملها، وكذلك التعريف بالموقف الحقيقي لدول الشرق الأوسط). فقد كان جان روندو يريد إقناع الشخصيات السياسية، وقادة الشركات والصحفيين الذين يعتبرهم جاهلين ومعلوماتهم قليلة.

على رغم من علاقاتهم المنتظمة مع وزارة الخارجية ورؤساء الوزراء،فأن قادة الشركة الفرنسية للنفط لم يتوصلوا إلى جعلهم يشاطرونهم آراءهم. على الرغم من الخطوة المتميزة جداً من جانب الجنرال ديغول بدعوته الرئيس العراقي عبد الرحمن عارف، عام ١٩٦٨، لزيارة باريس - وهو أول رئيس دولة عربي يستقبل في زيارة رسمية بعد حرب الأيام الستة -، فإن الشرق الأوسط والعراق لم يشكلا جزءاً من الاهتمامات الكبرى للرئيس الفرنسي. ولم يتعد ذلك على وجه التحديد مجرد الاهتمام بالنفط العراقي.

قبل استقباله عارفاً بعدة أشهر، استدعى الجنرال ديغول آندريه جيرو André Giraud، الذي كان آنذاك مديراً للهيدروكاربونات في وزارة الصناعة؛ بعد أن كانت بغداد قد وافقت آنذاك على إعطاء شركة إلف ELF الفرنسية ترخيصاً بالاستثمار في الأراضي العراقية. وقال له:

- اذهب إذن إلى بغداد لمعرفة ما يجري. إن كل هذه القصص المتعلقة بالإمتيازات النفطية مرتبطة بالاستعمار! جد شيئاً ملائماً لتسوية الوضع.

- هل يستوجب الأمر المجازفة بحصول جفوة مع الأنكلو - سيكسون؟ تساءل جيرو.

- ليس هذا ما نريد حصوله بالضرورة، رد عليه الجنرال ديغول.

❖ ❖ ❖

كان رجال النفط يكتبون المذكرة تلو الأخرى إلى الخارجية ويعرضون أفكارهم لدى عدد من الوزراء ورؤساء الوزارات، دون أن يصغي لهم أحد. وكان من بين أكثرهم نشاطاً فكتور ديمتز، رئيس الشركة الفرنسية للنفط، والدبلوماسي فانسان لابوريه، الأمين العام للشركة، وجان دوروك - دانر.

أما السفير بيار سيريل، الذي عمل في بغداد للفترة من ١٩٧٠ لغاية ١٩٧٥، فقد تصرف بشكل مختلف. في الغالب، كان يستقبل قادة الشركات النفطية الفرنسية. وكذلك نيكولا لانغ الذي غذت أفكاره، فيما بعد، مذكرات بعض الدبلوماسيين والمذكرات التي كان يرفعها مركز التحليل والتنبؤ التابع لوزارة الخارجية.

في لحظة سفر نيكولا لانغ الأولى إلى بغداد، بعد شهرين من قيام ثورة تموز ١٩٦٨، لم تعط الخارجية الفرنسية ومعها لندن سوى ثلاثة أشهر كعمر للقادة الجدد في السلطة. وحسب هؤلاء الخبراء، فإن العراق قد وقع، على أي حال، في الفلك السوفيتي. ولكن نيكولا لانغ اقتنع بما هو عكس ذلك. فحسب رأيه، أن فريق الحكم الجديد صلب ولن يغلق على نفسه في توجهه نحو موسكو. وكان ذلك تحليلاً يشاطره فيه بيار سيريل. ولكن غالبية الديغوليين في باريس لا يريدون سماع هذا الرأي.

على الرغم من ذلك، شكل اثنان من وزراء الجنرال ديغول السابقين استثناءً من تلك القاعدة، هما: جورج غورس Georges Gorse، الذي أصبح عام ١٩٨٥ أحد مؤسسي جمعية الصداقة الفرنسية - العراقية، ولويس تيرنوار Louis Terrenoire، رئيس جمعية التضامن الفرنسية - العربية. بالمقابل، بدا كوف ديميرفيل Couve de Murville أكثر من متحفظ.

كان بومبيدو أكثر تقبلاً وأكثر تحسساً لبرقيات بيار سيريل، السفير في بغداد، الذي أكد وهو واثق جداً من نفسه:

(إن العراقيين ليسوا شيوعيين متنكرين، بل هم وطنيون. وإن عمل فرنسا يمكنه منع توجهاً عراقياً محتملاً نحو موسكو). وحسب عدد من الشهود، فإن بيار سيريل شجع الوساطة الفرنسية أثناء تأميم شركة نفط العراق.

في السفارة الفرنسية، مال بول ديبي، المستشار الثاني، نحو العراق. فقد عرف القادة البعثيين المقيمين في لبنان آنذاك، حين كان يعمل مساعد قنصل في بيروت عام ١٩٧٦ وفي بغداد، ارتبط بعلاقة صداقة طويلة مع نيقولا لانغ. وقد أصبح بول ديبي، الملتزم جداً بهذا النهج، أحد أكثر المناصرين للتعاون الفرنسي مع العراق. وقد عاد إلى هذا البلد عام ١٩٨١ حين عينه فرانسوا ميتران سفيراً لدى صدام حسين. ثم أصبح، بعد تقاعده، عام ١٩٨٦، رئيساً نشطاً لجمعية الصداقة الفرنسية - العراقية.

في باريس، كان ديغولي جاء من اليمين المتحزب للملكية سابقاً، فيليب دي سانروبير Philippe de Saint-Robert يقدم نصائحه لصالح العراق.

يقول دبلوماسي: (إن سانروبير أوضح لبومبيدو أن الشؤون الخارجية والأوساط السياسية ترتكب خطأً في عدم الاهتمام بالعراق. وهم يخطئون حين يقولون أن هذا البلد في أيدي موسكو. فحسب رأيه، يتوجب الرد على انتظار العراقيين وإعطاءهم إمكانية اختيار فرنسا).

الفصل الرابع
البدايات العراقية في العلاقات العامة

(إن التشابه موجود، فالعقيدة الديغولية والعقيدة البعثية قد أدركتا أن الفعل الأساسي لعصرنا هو القومية. لذا، فإن التلاقي بين فرنسا في عهد الجمهورية الخامسة والعراق ليس عرضياً. وهو ليس ناجماً في الأقل من مفهوم تجاري كاريكاتيري"، هذا ما يؤكده شارل سانبرو. وبشأن اسمه الحقيقي، فهو ميشيل ماتيو Michel Mathieu الكاتب الذي جاء من اليمين المتطرف الذي كان يعمل موظفاً متعاقداً في الدائرة القانونية في وزارة الدفاع.

لقد نحا عدد من المؤيدين للعراق منحى سانبرو نفسه حيث ألبسوا مساعيهم فضائل الديغولية، والمصلحة الوطنية، ومعاداة الإمبريالية.

يقول أحد الدبلوماسيين: (في البداية، كان المسعى يبذل في إطار النيات الحسنة. لكن الأمر اختلف فيما بعد، حين منحت حكومات اليمين واليسار مساعدة غير مشروطة لصدام حسين).

❖ ❖ ❖

في بداية الستينيات، كانت هناك شبكة شبه رسمية. وبعيداً عن أن تنحصر هذه الشبكة بمجموعة من الأفراد، بدأ نظام علاقات، وتدخل، وتأثير بالتكون تدريجياً، الأكثر بعداً عن مراكز القرار السياسي - مناضلون مؤيدون للعرب، أغلبهم من المثقفين والصحفيين - انتظموا في لجان مختلفة ثم جمعيات، كي يعرفوا بأنفسهم ويكسبوا نفوذاً.

والأكثر قرباً من السلطة، وهم بعض الدبلوماسيين الذين كانوا يمتلكون وزناً أكثر، وقدرة على الضغط على القرارات بشكل أوضح. أفضل أسلحتهم كانت: أسلوب تقديم المعلومة، والقدرة على إثارة قلق القادة السياسيين، وذلك بالإيحاء إليهم أن إذا لم يختاروا الحل الذي يقترحونه، فإنهم يقترفون خطأً جسيماً.

إن التجربة المعاشة من قبل رجال النفط الفرنسيين والشركات التي افتتحت المواقع الأولى للأشغال العامة، برضا العراقيين، تغذي حجج كل أولئك المناصرين لسياسة عراقية أكثر هجومية. من جانبهم، لم يبق رجال صدام حسين سلبيين، بل بذلوا كنوزاً من المغريات.

❖ ❖ ❖

(اكتشف العراقيون العلاقات العامة مبكراً جداً، ووجهوا دعوات)، هذا ما قاله أحد الذين اعتادوا القيام برحلات بين باريس وبغداد. فبالنسبة لهم، كان هناك أولاً الديغوليون الكلاسيكيون، ورجال اليسار أيضاً، ثم الموالون للعرب، و((الثوريون)) أو ممن يعتبرون هكذا.

في ٢٧ كانون الثاني ١٩٦٩، أثار إعدام علني لخمسة عشر عراقياً -منهم تسعة يهود- اتهموا بالتجسس لصالح إسرائيل، عدداً من الاحتجاجات. بالمقابل، نشرت جمعية الصداقة الفرنسية - العربية بياناً مجاملا ومعادياً لإسرائيل. في الحال، قام السفير العراقي الأنيق، المشاط، الذي كان لا يزال يقيم في مبنى السفارة المتواضع في عمارة صغيرة من حي نويلي Neuilly، بدعوة قادة هذه الجمعية لزيارة العراق.

وقد اصطحب لوسيان بيترلان Lucien Bitterlin، وهو أحد مؤسسي جمعية الصداقة الفرنسية - العربية، ولويس تيرنوار، الوزير سابقاً في زمن ديغول، .. معهما بعض البرلمانيين الذين لا يملكون أسماء لامعة. ولكن، في إشارة إلى الأهمية التي يوليها العراقيون لكل شكل من أشكال المساعدة، استقبل الرئيس البكر الوفد الفرنسي.

بقول أحد أعضاء الوفد: (لقد قال لنا الرئيس البكر: أنا أعرف ما تقومون به؛ إنه من أجل فرنسا. وأضاف: اعلموا أننا سنميز الشركات الفرنسية، حتى لو كانت عروضها أكثر ارتفاعاً في الكلفة من عروض منافساتها).

كان العراقيون لا يزالون مبتدئين في مجال الاتصالات مع الآخرين. فهم لا يعرفون دائماً من هي هذه الشخصية التي يودون الاتصال بها، ومن هي الشخصيات التي لها وزنها في فرنسا. ولذلك، فإنهم يسألون عنهم قادة جمعية الصداقة الفرنسية - العربية لتيسير اتصالاتهم مع الأعضاء المؤثرين في الأغلبية الديغولية وكذلك الصحفيين و المثقفين، بل وحتى المدراء الصغار. وقد كانت النتائج محدودة على رغم من وجود ديغوليين في جمعية الصداقة الفرنسية - العربية مثل فيليب دي سانروبير، وشارل سانبرو، والبروفسور جاك بيرك Jacques Berque الاستاذ في كلية فرنسا، وجورج مونتارون Georges Montaron مدير الجريدة الأسبوعية (تيموانياج كريتيان Témoignage Chrétien).

على رغم من ذلك، هناك نقطة مهمة: شارك لوسيان بيترلان وبعض الأعضاء الآخرين في الجمعية بسلسلة من البرامج في الثقافة الفرنسية من أجل ((التعريف بالعراق)). وفي حزيران ١٩٧٢، أثناء وليمة الغداء التي أقيمت على شرف سعدون حمادي، كان لوسيان بيترلان وجاك بيرك ضمن المدعوين في فندق كريلون.

وإذا كانت جهودهم تستهدف بالمقام الأول الديغوليين، فإن العراقيين ينظرون أيضاً نحو اليسار. وحتى قبل إنشاء الحزب الاشتراكي PS عام ١٩٧١، كان الاشتراكيون الشباب في مركز دراسات وبحوث التربية الاشتراكية، وبشكل خاص جان بيار شوفنمان Jean-Pierre Chevènement وديديه موتشان Didier Motchane، يقيمون علاقات مع حزب البعث. واستمروا بتنميتها على مدى عشرين عاماً.

لقد أظهر قادة الحزب الاشتراكي تحفظاً أكثر من رفاقهم في مركز دراسات وبحوث التربية الاشتراكية. لكن في كل مؤتمر من مؤتمراتهم كان وفد من حزب البعث العراقي في قائمة المدعوين. كما أن جهود الإغراء لم تستثنِ الشيوعيين وقادة الحزب الاشتراكي الموحد PSU.

في صيف ١٩٧٣، وبدعوة من الجامعة العربية، قام ميشيل روكار Michel Rocard، الأمين العام للحزب الاشتراكي الموحد، وبرنار لانغلوا Bernard Langlois، ووفد صغير بزيارة إلى مصر ولبنان وسوريا والعراق حيث استقبلوا بحفاوة.

ذكر أحد أعضاء الحزب الاشتراكي الموحد: (لقد التقينا بوزراء وقادة في حزب البعث. وكنا نتمنى أن نحصل من العراقيين على موافقة، لغرض مساعدتنا، بحجز عدد جيد من الاشتراكات في صحيفتنا الأسبوعية (المنبر الاشتراكي Tribune socialiste)، لكن ذلك لم يجر. وقد طلبنا ذات الشيء من الليبيين).

❖ ❖ ❖

إذن لم يكن ذلك إلا البداية. فقد كان طموح العراقيين هو خلق شبكة من الصداقات المتنوعة في فرنسا، لتسهيل علاقاتهم مع الملاك السياسي، الحالي والمستقبلي، وكذلك مع الصحافة. وما ذلك إلا لمواجهة نفوذ ((العدو)) الذي يبالغون في تقدير قوته: اللوبي الموالي لإسرائيل. وعلى مر السنين، توالت الدعوات، والمؤتمرات، والمهرجانات الشعرية، والرحلات لغرض الدراسة. وكان العراق يتحمل كل النفقات: تذاكر السفر بالطائرات، قوائم حسابات الفنادق، هدايا واستقبال من قبل صدام حسين. وخلال الحرب ضد إيران، ((تجول)) عدد من الفرنسيين على الجبهة؛ بل إن جاك بيرك، الأستاذ في كلية فرنسا، لبس بزة عسكرية لهذه المناسبة. وكان الهدف مزدوجاً؛ فلم يعد الأمر كسب عدة عشرات من المدعوين المفترض أنهم مؤثرون لصالح القضية.

ورد في شهادة أحد الذين شاركوا في تلك الزيارات: (كان العراقيون يظهرون زيارات الأجانب هذه كمشاهد تعرض أمام الناس. كانوا يملأون الصالات ليعرضونها أمام الأعين. كانوا يؤجرون جزءاً من رحلات الطائرات لغرض نقل المدعوين إلى مهرجان بابل، وفي كل الظروف. كانوا يدعون الكوبيين والفرنسيين وآخرين غيرهم ليقودوهم من مدينة إلى أخرى. وكان صدام حسين يأتي وينقل التلفزيون كل ذلك. فقد كان يتوجب جعل السكان يقتنعون بشكل أو بآخر أن بغداد هي مركز العالم وان العراق معروف وفي موضع اهتمام العالم أجمع).

❖ تشكلت عام ١٩٤٦ وخلفتها المديرية العامة للأمن الخارجي DGSE في ١٩٨٢,/٠٤/٠٢ السنة. وهو له تأكيداته المفرطة في المغالاة. يقول ديمارانش: (لقد كنت أول غربي يفتح باب العراق. وقد عزمت العمل من أجل أن لا يكون العراقيون حلفاء للسوفيت لوحدهم الذين، من جانب آخر، هم أنفسهم بحاجة إليهم؛ وأن يكونوا متفقين مع الغرب، وبصفة أخص، مع فرنسا (...). كانت مصالح أوربا ومصالح العالم الحر تقتضي العمل بطريقة ما كي لا يبقى العراق زبون الروس لوحدهم. وقد التقيت برجل استثنائي هو سعدون شاكر، رئيس المخابرات، (...) بعد ذلك، أصبحنا أصدقاء جداً(٦).

(٦) من كتاب (في سر الأمراء Dans le secret des princes) الذي صدر عام ١٩٨٦ عن دار النشر Stock الذي هو عبارة عن مقابلة أجرتها معه الصحفية كريستين أوكرنت Christine Ockrent.